المحاضرة العاشرة
الصراع بين البابوية والإمبراطورية

بتتويج شارلمان إمبراطورا على الغرب وإحيائه للإمبراطورية الرومانية المقدسة في مستهل القرن التاسع الميلادي، كانت البابوية قد وضعت أسسها وركائزها، ولم يبق للبابوات سوى بذل قصارى جهودهم لإكمال المسيرة البابوية التي وضع دعامتها جريجوري العظيم(ت.604م)، وكان هذا إرهاصا ببداية الدور الثاني في تاريخ البابوية وصراعها مع القوى السياسية في الغرب[1].

وقد شغل هذا الصراع حيزا زمنيا طويلا، لكن بموت شارلمان الذي ساهم البابا ليو الثالث في تتويجه، سرعان ما أنهى الآمال والطموحات، إذ تم تقسيم الإمبراطورية بين الأبناء، ولم تلبث أن ساعدت الظروف الملك أوتو الأول(936-973م) ابن هنري الأول بأن يكون متوجا بتاج الإمبراطورية، نتيجة وقوفه إلى جانب البابا يوحنا الثاني عشرJohn XII(955-964م) ضد أعدائه في ايطاليا، وهكذا تشابكت المصالح وتداخلت بين الألمان والايطاليين، وسعى الأباطرة الألمان لتثبيت نفوذهم في ايطاليا على حساب البابوات.

غير أن البابوية أصابها الضعف وفي كامل الجهاز الكنسي، ومن بين العيوب مسألة انتخاب البابوات وبيع المناصب الدينية (السيمونية) وزواج رجال الدين، بالإضافة إلى تراجع وتدهور النظم الرهبانية، وأصبح الوضع ملحا من أجل الإصلاح، فلقي ذلك تأييدا من الإمبراطور الألماني هنري الثالث (1039-1056م)، الذي قضى على مسألة التلاعب في انتخاب البابوات، كما ساهم بدوره في اعتلاء ليو التاسع Leo IX(1049-1054م) عرش البابوية، حيث انتعشت البابوية في عهده، وبمجيء البابا جريجوري السابع(1073-1085م) أصبحت البابوية ذات استقلال تام دينيا وسياسيا[2].

وفي فترة بابوية جريجوري، كان حينها يجلس على عرش الألمان طفل صغير هو هنري الرابع Henry IV(1056-1106م)، فكان لزامٌ على البابا فرض سلطانه، وترجيح كفة البابوية على الإمبراطورية، وبذلك كان إيذانٌ ببداية الصراع[3]، وقد اتهم جريجوري الإمبراطور ونهَاهُ عن التدخل في شؤون الكنيسة، وفي نوبة غضب دعا الإمبراطور هنري إلى عقد مجلس في وورمز Worms وأعلن بطلان الانتخابات، إن لم يتم استشارته مسبقا كإمبراطور[4]، وكان ذلك سنة 1076م، وقد رد البابا بحرمان هنري ورجال الدين الذي اشتركوا معه في قرار مجمع وورمز، وبذلك اندلعت الحرب بينهما، التي انتهت برضوخ الإمبراطور لمطالب البابا في حادثة كانوسا Canossa [5].

حينها كان جريجوري يحتمي من اللومبارد في قلعة ماتيلدا Matilda ثلاثية الجدران في كانوسا، جاءه الإمبراطور هنري رافعا رايته من أجل السلام، ومن خلال وسطاء وضع جريجوري القواعد الأساسية للاتفاق، وكان على هنري أن يرسل تاجه وجميع حليه الملكية الأخرى ليتم التخلص منها من قبل قداسته، كما يجب عليه أن يعترف علانية بعدم استحقاقه ليكون إمبراطورًا بعد سلوكه المشين في وورمز، بالإضافة إلى أن يلتزم بأي تكفير عن ذنبه فرضه عليه البابا(6).

وحينما اعتلى عرش البابوية أوربان الثاني (1099-1088م)، افتتح عصره بالحروب الصليبية على المسلمين، بأن دعا جموع اللاّتين في مجمع كليرمونت Clermont بفرنسا في نوفمبر سنة 1095م لخوض الحرب المقدسة، وأثناء ذلك كان على خلاف مع ملك فرنسا فيليب الأول Philippe I لعلاقته غير المشروعة بخليلته برتراد دي مونتفورت Bertrad de Montfort، فأصدر قرار الحرمان ضده، وهدد أيضا وليم الثاني William II (1100-1087م) النورماني ملك انجلترا نتيجة خروجه عن تعاليم الكنيسة الغربية، كما ساءت علاقته بالإمبراطور الألماني هنري الرابع Henry IV (1106-1050م) فاصدر بحقه الحرمان الكنسي أيضا، ولعل ذلك يعطينا فكرة عن عدم مشاركة ملوك الغرب في الحملة الصليبية الأولى، بينما شارك فيها الأمراء وإتباعهم في النظام الإقطاعي(7).

وبهذا خرجت البابوية منتصرة لتبدأ مرحلة جديدة، وهذا عندما عملت الملكية الألمانية على محو عار كانوسا وزيادته في عهد أوربان الثاني، إذ أن الإمبراطور هنري الخامس (1125-1106م) الذي راح يسعى إلى الخروج من فلك البابوية وانتهى به المطاف إلى عقد اتفاقية وورمز سنة 1122م مع البابا كاليكستيس الثانيCalixtus II(1124-1119م)، بها تم حل مشكلة التقليد العلماني التي كانت سببٌ في إثارة المشاكل من حين إلى آخر، غير أن سبب الصراع الجوهري بين البابوية والإمبراطورية لم ينته بعد، فكلاهما كان يسعى للزعامة على العالم المسيحي(8).

ومن بين قرارات وورمز أن انتخاب الأساقفة ومقدمي الأديرة خارج ألمانيا وفق القانون الكنسي دون تدخل السلطة العلمانية، وبتعيين الأسقف والاحتفال بذلك دينيا، يمكن للإمبراطور أن يزوده أو يكلفه بأية سلطة. أما بخصوص أساقفة ألمانيا فيمكن انتخابهم، وللإمبراطور أو ممثله حق الحضور، وبعد عملية الانتخاب يقوم الإمبراطور بتقليد الأسقف تقليدا علمانيا قبل التقليد الديني، فحضور الإمبراطور أو ممثله يمكن أن يؤثر على عملية الانتخاب، غير أن البابوية حققت نصرا على الإمبراطور ولو جزئيا وذلك بتحديد سلطة الإمبراطور في اختيار الأساقفة، وبهذا ظل البابا سيد الموقف في الغرب الأوربي(9).